

العواطف والعقل في أدب العقاد

مجلة « السلام » - القسم الأدبي

السنة الأولى - العدد 8 - 1933

احمد ابا حنيني

ورد في الجزء السادس من مجلة « السلام » بصحيفة 38 مقال للأديب سعيد حني أبدى فيه آراء في أدب الشاعر العبقرى عباس محمود العقاد صادف الصواب في جلّه. بيد أنى أريد أن أناقشه وأبحث معه في رأى منها أذكره فيما بعد، وقبل الشروع في المناقشة يجب على أن أذكر لأدينا فضله في التقدم إلى موضوع واسع الأطراف، متشعب النواحي كأدب العقاد، وإنها لشجاعة أدبية تستحق الثناء الجميل لا سيما وأن أدينا قد اهتدى إلى الكلام على شاعر وكاتب قل نظيره في أدبنا العربي الحاضر. فأدب العقاد أصح وأنفع غذاء للقلوب والعقول، ونحن اليوم في أشد حاجة إلى مثل هذا الأدب النادر. قال أدينا في المقال المذكور:

« وهنا أستطيع - وقد تتبعته ما كتبه العقاد نثراً وشعراً - أن أزعم أن أسلوبه لا يتصل بالطريقة الوجدانية، وأن العقاد لم يسع قط إلى اتخاذ هذه الطريقة فيما سطر، فهو دائماً يكتب عن فكر ودأماً يستوحى صور الحياة بعمق تفكيره فيتولد منها إنتاجه الخصب على كثرة الأفراد الذين يخيل إليهم أن الأدب ينحصر في طريقة العاطفة التي لا أريد أن أصفها إلا بأنها تمثل صبيانية المرء أكثر من رجولته » .

يستنتج من هذا أن أدب العقاد أدب تفكير لا أدب عواطف، وهذا ما لا أعهدده في العقاد لا في آرائه في الأدب الصحيح والفنون الجميلة ولا فيما يكتب هو من شعر ونثر،

والذي أعتقده هو إن كانت ثم رسالة في أدب العقاد فهذا الأديب قبل كل شيء رسول العاطفة في عصر كثر فيه التشيع للعقل، فالعاطفة في نظر العقاد هي قوام الحياة أو هي الحياة نفسها، وهي أيضا قوام كل أدب صحيح وفن جميل، وأنا أرى أنها هي قوام أدب العقاد. هذه ثلاث نقط تأتي بالكلام على كل واحدة منها على حدها.

يرى العقاد - ورأيه الحق - أن الحياة تغزر وتقوى وتتسع وتنوع مهما غزرت العواطف وقويت واتسع مداها وتنوعت والعكس بالعكس، فلذلك نراه يوصي ذوي القلوب الحفاة على فتحها للعواطف وتمرينها على تربيها وإتمامها شيئا فشيئا لأن ذلك يزيد في حياة الشخص عمقا وسعة ويجعله يتصل بالحياة الكونية العامة المحيطة به.

قال في مقدمة الجزء الأول من ديوانه:

« عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التي يعرض عنها سواك ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما في وسع الإنسان أن يعيش وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت » .

فإذا جفت عواطف الشخص فذلك موته وإن رجح عقله فرحان عقله لا يجديه شيئا، وهذا ما يصرح به العقاد في نونيته النادرة المثال التي أسماها « الحب الأول » حيث يقول:

كن بالخوالج حيا فالحجي جدث لربه ووقار الحلم أكفان
وإما الرء يحيي في خوالجه وليس يحييه في الألباب رحمان

أما أهمية العوظف بالنسبة إلى القوة العقلية والعملية، فللعقاد فيها رأى خاص هو الصواب فيما أعتقد. يقسم علماء النفس حياتنا النفسية إلى ثلاث قوات:

قوة عاطفية، وقوة عقلية، وقوة عملية. وهذه القوى يمتزج بعضها ببعض ويتألف منها وحدة هي النفس، وما من مظهر من مظاهر الحياة النفسية إلا وله حظه من الجانب

العاطفي والجانب العقلي والجانب العملي، ويقوى ويضعف كل جانب منها بحسب الأشخاص والحالات؛ هذا ما هو متفق عليه عند علماء النفس، ولكن لمن الرياسة والسيطرة؟ أهى للقلب؟ أم للعقل؟ أم للإرادة؟ يرى العقاد خلافا لما يتوهم أنها للقلب وأن العقل والإرادة خادمان له يأتبران بأمره ويتهيان بنهيه يسخرها حيث شاء ومتى شاء في غرض أقوى العواطف سواء كانت مشعورا بها أم خفيت في غياهب اللاشعور . (Inconscient)

فهذا ما استنتجته من قوله في ديوانه بصحيفة 121 تحت عنوان « العقل والعواطف » .

ليس الذكاء على الحياة مهيمنا	إن الحياة على الذكاء تهيمن
والعقل من نسل الحياة وإنما	قد شاب وهى صغيرة تتين
والطفل تصحبه الحياة وما له	لب يصاحب نفسه ويلقن
والناس قد عاشوا وما كان الحجبى	إلا جنينا في الحشى يتكون
إن العواطف كالزمام يقودنا	منها دليل لا تراه الأعين

لم يصرح العقاد في هذه الأبيات بلفظة « الإرادة » إلا أن سيطرة العواطف على الإرادة جاءت ضمنا في كلامه كما يوضح ذلك من قوله « يقودنا » في البيت الأخير. هذا الرأى هو الصواب فيما يظهر لي كما قلت، فإننا لا نعمل إلا لسبب، ولا نفكر إلا لعمل، وجميع الأسباب التي نعمل ونسعى من أجلها مرجعها عند التتبع والاستقراء إلى جلب لذة أو دفع ألم؛ فإذا وقع لنا تردد قبل الشروع في أي عمل فإنه ناشئ عن النزاع القائم لا بين القلب والعقل ولا بين القلب والإرادة، ولكن بين العواطف المعتركة في القلب فقط حتى إذا كان الظفر لإحداها على غيرها كان لها الأمر والنهى وأقلع التردد. هذا رجل يحب الرياسة مثلا ويطمح إليها ولكنه مع ذلك يحب العدل والإنصاف فإذا كان حب الرياسة عنده أقوى من حب العدل والإنصاف فإنه يعمد بعد شئ من التردد

إلى جميع الوسائل الحلال منها والحرام التي توصله إلى غايته المنشودة، وإذا كان حب العدل والإنصاف عنده أقوى كانت سيرته غير السيرة الأولى وأحجم أمام كل وسيلة يأبأها العدل والإنصاف.

وخلاصة القول هنا أننا منقادون في جميع أعمالنا إما إلى عاطفة نفعية (Interet) أو إلى عاطفة أخلاقية (Morale) أو إلى عاطفة فنية (Esthetique) تخفى وتظهر حسب الأشخاص والظروف وليست وظيفة العقل إلا وظيفة بحث وتنقيب، وليست وظيفة الإرادة إلا وظيفة تنفيذ لكل ما تأمر به العاطفة الظاهرة سواء قبل بحث العقل أو بعده وسواء كان الأمر مطابقاً لنتيجة البحث أو غير مطابق. هذه أهمية العواطف في الحياة في نظر العقاد. أما في عالم الآداب والفنون فالعقاد يجعل العاطفة الصادقة قوام كل أدب صحيح وكل فن جميل، وليس للعقل في نظره أى خطر في الإنتاج والإبداع القيم إذا لم يستمد من شعور قوي أصيل، ويكفيها هنا أن تأتي ببعض ما كتبه العقاد في هذا الموضوع ليتبين للقارئ ما هي الرتبة التي يريدها العقاد للعواطف في عالم الآداب والفنون. جاء في مقدمة الجزء الأول من ديوانه:

« وينبغي أن يفرق الناقد بين آداب الذكاء وآداب الطباع؛ فأدب الذكاء زخارف أقوال وتصيد خواطر وتلفيقات أوهام وهي حبر على ورق، وآداب الطباع إيمان صادق، وشعور دافق، وعمل ناطق، وهي كلمات من لحم ودم، وليس هناك من يشك في أن الأدب الصحيح موصول بالطباع القوية والفطر الحية... وينبغي أن يفرق الناقد بين الذكاء والعقل، فإن العقل بما فيه من ضبط النزعات وكبح الأهواء والموازنة بين الإحساسات مرجعه إلى الطبع القوي لا إلى الفهم الوحيي بخلاف الذكاء فإن مرجعه إلى الذهن، وليس الذهن بشيء إن لم تمدده العوامل المحركة والخلائق المستمسكة » .

هذا فيما يرجع للأدب، أما فيما يرجع للفن فقد جاء في المطالعات بصحيفة 208 تحت عنوان « في معرض الصور » :

« لو قلنا إن الحياة بغير الروح الفنية عبث لما قلنا شيئاً جديداً عند الذين خبروا الفنون وتذوقوا معاني الحياة وعرفوا ولو شيئاً قليلاً مما يحب منها وما تستحق أن تعشقها النفوس من أجله. ولكننا نغرب غاية الإغراب في رأي أولئك الذين يعيشون في الدنيا ولا يشعرون أو يوجدون ولا يعيشون » ...

« والحقيقة أن الإنسان لا يحيى الحياة الكاملة إلا إذا أشبع حسه مما يحقد به، وملاً نفسه من تصور ما تقع عليه الحواس. هذه هي الحياة وهذه أيضاً هي الروح الفنية التي يجرمها كثيرون وهم قادرون على إيقاظها في نفوسهم أو أتاحت لهم الفرصة الهائلة » .
هذه الجمل التي اقتطفنا من بعض ما كتبه العقاد في الموضوع واضحة جلية لا تحتاج إلى شرح أو بيان، ولا نزيد عليها سوى التنبيه إلى ما ورد في مقدمة « وحى الأربعين » حيث العقاد يعرف الشعر الصحيح « بالتفسير الجميل عن الشعور الصادق » ، فلا يشترط فيه لا « صبيانية » ولا « رجولة » ويكتفي فيه بالتعبير عما يختلج في النفس، تعبير الصادق الأمين مع وجود الجمال في التعبير.

وبعد أن لخصنا رأي العقاد في مزية العواطف في الحياة والآداب والفنون بقي علينا أن نرى هل العقاد تطابق مذهبه فيما يكتب من نثر أو شعر أو يخالفه. هنا نترك الكلام على ما يكتب العقاد نثراً للاكتفاء بما تقدم لنا من أن العواطف هي العوامل المحركة لنا في كل ما نأتي وندع. ونقتصر على الكلام في الشعر لأهميته العظمى في أدب العقاد فنقول: العقاد قبل كل شيء « شعلة عاطفة » وهو موافق مذهبه تمام الموافقة. فشعره كله مملوء حبا ورجاء وأسا وبغضا ورغبة ورهبة وغضبا ورضى وسخطا، مع التنوع والدرجات التي تقبل كل واحدة من هذه العواطف على حدتها أو ممتزجة بغيرها. فالباعث للعقاد على إبداء ما يكنه صدره هو الحاجة التي يشعر بها إلى إبدائه. والباعث له على أن يخرجها في قالب الوزن والقافية هو حب الجمال والعاطفة الفنية التي بلغت عنده أرقى درجة. وموضوع شعره العواطف التي تثيرها في نفسه المؤثرات الخارجية والداخلية بجميع

أشكالها وألوانها في حالتى سلمها وحرهبها، ولفتح ديوان العقاد. جاء في صحيفة 209 تحت عنوان « روضة ساكنة » :

روضتي ظللها الو	ت وطلتها الحياة
هجمت منها ذراها	والجذوع الراسيات
وغفت أطيارها فء	ى نشاوى حالات
سكنت نفسي إليها	واحتوتها النفحات
كسكون العين باللي	ل مشى فيها السبات
فلها من حالتها	سهوة ثم التفات
تحسب الحلم عيانا	تقتفيه اللمسات
وتخال الحسن حلما	موهته الظلمات
نعمت الروضة هذي	ونعما الخلوات
نسمت من عالم الرو	ح عليها نسومات
تلتقي الأشباح فيها	والنفوس الشاردات
حبذا كل سكون	فيه محيا وممات
بين موت وحياة	لا تضيق المهجات

فهل نرى هنا إلا سرورا وديعا واغتباطا بسكون الروضة وسكون النفس، ولذة أحلام ونشوة خيال أطلق من اسار الحقيقة والتمتع بمشاهدة الجمال الناشئ عن التباس الأشياء وامتزاج الأضداد ...

كل هذا وغيره نستجليه ونكاد نلمسه من خلال هذه الأبيات السائغة العذبة.

جاء أيضا في قصيدته «نفثة» بصحيفة 210 من ديوانه:

زمني جوزيت يا زمني
 ما الذي أبقاه لي زمني
 ليس لي في مبصر أمل
 لا أرى في القبح من حسن
 شامت الأوصاف في نظري
 ما الأماني؟ إنها خدع
 ما الصدافات التي زعموا؟
 ما الملا؟ ما المجد؟ في أم
 ما السجايا الغرو وأسفا!
 بل سل الأقدار إن نطقت
 نشتري أنفاسها قطما
 أقصاري الطرف من نظر
 والممى رزء وإن وضحت
 ضل عقل لا ترفهه
 إنما يشقى الفؤاد وما
 أى بأس فيك لا يهن
 غال صفوي كله الزمن
 كل شيء فيه لي شجن
 فلماذا يقبح الحسن
 سرها المخبوء والمعلن
 ما الغواني؟ إنها دمن
 إنها البغضاء تؤتمن
 مجدها بل ربهما وثن
 إنها حلم ولا وسن
 ما حياة شأوها بدن
 وهي نعطيها ولا ثمن
 رؤية بالويل تقترن
 في ضياء المبصر المحن
 نشوة تطفو بما يزن
 شقيت إلا به الفطن

في هذه القطعة نرى الشاعر محتقرا يأسا ناقما قلقا ساخطا يرينا نفسه فريسة لهذه
 العواطف المتأججة تتنازعها وتجذبها من كل جانب فيشتد تأله ويحتدم غضبه فتزدحم فيه
 الاستفهامات. ما الأماني؟ ما الغواني؟ ما الملا؟ ما المجد؟ ما السجايا؟ بل وأقصى من هذا
 وأمض « ما حياة شأوها بدن » « نشتري أنفاسها قطما » « وهي نعطيها ولا ثمن » .
 هذان مثالان من شعر العقاد، وشعره كله من هذا الطراز نستجلي منه العواطف غريزة
 متنوعة متدافعة متجادبة.

لا نريد بما قدمنا أن ننظر حظ الفكر في قيمة شعر العقاد، فكل من قرأ شيئاً لهذا الشاعر يلاحظ لأول وهلة قوة فكره ورجحانه واعتداله، ولكن هذا الفكر على « جبروته » ليس له إلا الرتبة الثانية بالنسبة للعاطفة، وليست وظيفته في شعره إلا وظيفة آلة تستعمل للتحليل والتعليل والمقابلة والوزن والبحث عن وسائل الوصف والتعريف إلا أن هذه الآلة عند العقاد توفرت فيها شروط القوة والدقة والأمانة، فهي عنده خير معين للعاطفة في الإنتاج الفني. ولناخذ قطعة من شعره لبيان ذلك.

جاء في « وحى الأربعين » بصحيفة 136 تحت عنوان « نبضات جديدة » :

خفقات تلك من وزن جديد	أيها القلب فاسمعي صدك
ذلك الوجه وما العهد بعيد	أنت تهواه فلا تنكر هواك
أنت تهواه وتسمى في هنا	كل يوم بعمد يوم كى تراه
لا تراوغني وقل هيا بنا	في صريح القول نستجلي سناه
تحسب الرقة فيه الما	فاذا أنت من الوجد تذوب
لا يكون الحب إلا هكذا	أنا لا أجهل أسرار القلوب
كاصفرار الشمس في ثوب الغروب	واصفرار العجاج في ثوب القدم
ذلك اللون نسميه الشحوب	وهو في الحسن شفيح للسقم
رحمة للقلب من ذلك الوجيه	صيغ من ذوي حنان وحنين
كلما رفرفت بالمعين عليه	شبه الفرحان عندي بالحزين
إن أشأ قلت خيال بالكرا	أو أشأ قلت عيان لا خيال
جمع الأمران لي فيما أرى	حين صح الحلم في خير مثال

نستنتج من هذه الأبيات أن الشاعر أحس بشيء يحتلج في نفسه وتغيير في نبضات قلبه. ما هذا الشيء الجديد وما مثيره؟ يسأل الشاعر نفسه هذا السؤال فيبلغ به التحليل

والتعليل والاستدلال إلى أن سبب التغيير المريب في نفسه هو الحب، ولكن نشأ هذا الحب؟ لا شك عن جمال المحبوب. وما هي مظاهر هذا الجمال؟ نرى الشاعر يحلل سمات محبوبه ويستجلي الجمال من مظاهر الإشكال وامتزاج النقيضين كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. نراه يستجلبه في التباس الرقة بالألم، والخيال بالحقيقة، وامتزاج الحنان والحنين، والفرح والحزن.

هذا كله كان الشاعر يشعر به مجملاً في أعماق نفسه، ولكن عندما أصغى إلى قلبه وأنتبه وأعمل فكره رد كل شيء إلى سببه وآخر ما كان مجملاً في نفسه، مفصلاً مشروحاً في قالب خلاب يرضي القلوب والعقول.

وها هو مثال آخر جاء في هدية الكروان بصحيفة 65 تحت عنوان « قبة بغير تقبيل » :

بعد شهر أنلتقي بعد شهر بين جيش من النواظر مجر
لم يحولوا - وحقهم - بين روحه لنا وإن ألزموها طول صبر
تمت القبة التي نشتهيا كلها غير ضم ثغر لثغر
تم منها شوق ورف شفاه وهوى نية وخفقة صدر

في هذه الأبيات الأربعة ولا سيما في البيت الأخير تناول فكر العقاد تحليل عاطفة قوية (Emotion) نشأت بغتة ولم يمنعها من التدفق سوى سد النواظر المحيطة.

هذه أظهر وظائف العقل ومزاياه في شعر العقاد، وهل هذا العقل الجبار وهذه الآلة القوية الامينة تتوازن مع شعور العقاد في غزارته وتنوعه ولطافته؟ وهل تقوى على تناول وتحليل ووصف كل عاطفة تجول في نفس العقاد؟ ذلك مما نشك فيه، فقد يعثرها العجز والتقصير في بعض الأحيان كما نأخذ ذلك من قول الشاعر نفسه في قصيدته البديعة « كلماتي » التي وردت في هدية الكروان بصحيفة 85 فقد جاء فيها:

كلماتي ما تقولي	من إذن يا كلماتي
ما نعيم يمنح الك	ف غداء المهجات
تقصر الأبواب عنه	وهو بعض اللمسات
في يدي أدعوه خصر	تارة أو زهرات
في فمي أدعوه ثغرا	تارة أو قبيلات
وفؤادي؟ ما اسم ما في	من إذن يا كلماتي
اسأل الأرباب عنه	أو سلي الصمت وهاتي

وخلاصة القول إن العقاد يستوحى شعره من عالم العواطف التي غزرت مادتها عنده وتنوعت، وبواسطة عقله الراجح وحاسته الفنية، يفرغ هذه العواطف مفصلة مشروحة في قوالب جميلة مختلفة الأوزان والأشكال. ولدعه هو نفسه يحدثنا عن طريقته فما أحلى حديثه وأشبهه! جاء في هدية الكروان بصحيفة 51 تحت عنوان « شعر وشعر » :

امن شعراً؟ نعم شعرو شعرو	وخفق في الجوانح لا يقدر
فمنى الوزن في خفقات قلبي	ومنك الوحي والحسن الأغر
وتسألني كأنك لست تدري	وما لي غير ما أوحيت سر
واحري بي سؤالك عن قصيدي	فما لي فيه - بل لك أنت - أمر
أنظم في غد أم لات نظم	على ما ترتضيه ولات نثر
وعن شفتيك لا شفتي أروى	عشية يلتقي ثغرو وثغرو
فلقني أجبك ولا تسليني	سؤال الشمس هل سيلوح قمر